



التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في تفسير القرطبي في ضوء التحليل الصوتي *A Linguistic Analysis of the Vocalic Alternation Phenomenon in Al-Qurtubi's Tafsīr in the Light of Phonological Analysis*

عمر عقلة الدعجة

وزارة التربية والتعليم الإماراتية/الجامعة الإسلامية (ميسوتا)
aldajaa@hotmail.com

عبد الله علي أبو السعود*

جامعة حمدان بن محمد الذكية (الإمارات العربية المتحدة)
abd_sood@yahoo.com

تاريخ النشر: 2026.07.15

تاريخ القبول: 2026.05.31

تاريخ الاستلام: 2026.02.12

ملخص:

تتناول هذه الدراسة ظاهرة الإعلال بوصفها إحدى الظواهر الصرفية ذات الامتداد الصوتي في العربية، من خلال معالجتها في تفسير الإمام القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، وإعادة قراءتها في ضوء الفونولوجي الحديث، وتنطلق الدراسة من إشكالية تتمثل في الكشف عن طبيعة التعليل الذي اعتمده القرطبي في تفسير التحولات الإعلالية، ومدى انسجامه مع مفاهيم المماثلة الصوتية وإعادة تنظيم البنية المقطعية في اللسانيات المعاصرة، وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على الاستقراء النصي لمواضع الإعلال في التفسير، ثم تحليلها صوتيًا عبر تمثيل التحولات من البنية الأصلية إلى الصورة المنطوقة، مع إجراء موازنة منهجية بين التعليل التراثي والمقاربة الفونولوجية الحديثة، وخلصت الدراسة إلى أن معالجة القرطبي لظاهرة الإعلال تنطوي على وعي صوتي وظيفي يتقاطع في مضمونه مع مفهوم المماثلة والاقتصاد الجهد في النطق، وأن الفارق بين المنهجين يكمن في الاصطلاح وأدوات التحليل أكثر مما يكمن في جوهر الفهم العلمي للظاهرة، كما أكدت الدراسة أن الإعلال ظاهرة صوتية-مقطعية في أساسها، وأن كتب التفسير تمثل مجالًا خصبًا للدراسات اللسانية التطبيقية.

الكلمات المفتاحية: الإعلال؛ التحليل الصوتي؛ المماثلة؛ البنية المقطعية.

Abstract:

This study investigates the phenomenon of i'lāl (vocalic alternation) as a morphophonological process in Arabic through an analytical examination of its treatment in Al-Qurtubi's Al-Jāmi' li-Ahkām al-Qur'ān. It reassesses his explanations of vocalic transformations in light of contemporary phonological theory, particularly assimilation, syllable restructuring, and articulatory economy. The central question is whether his treatment reflects a purely traditional morphological description or an implicit functional phonological awareness aligned with modern linguistic principles. Using a descriptive-analytical methodology, the study systematically analyzes instances of i'lāl in the Tafsīr and traces

* المؤلف المراسل.

transformations from underlying forms to surface realizations within a comparative framework. The findings reveal that Al-Qurtubi's explanations, especially regarding vowel transfer and consonant alternation conditioned by preceding vowels—conceptually correspond to phonological assimilation and syllabic harmony. The study concludes that i'āl is fundamentally a phonological-syllabic phenomenon with morphological consequences and underscores the exegetical tradition as a fertile domain for applied linguistic inquiry.

Keywords: I'āl; vocalic alternation "phonological analysis"; assimilation; syllable structure.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.
أما بعد.

فإنَّ القرآن الكريم كان - ولا يزال - ميداناً خصباً للبحث العلمي في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، إذ لم يقتصر الاهتمام به على بيان معانيه وأحكامه فحسب، بل تعدى ذلك إلى الكشف عن أسرار البيان، وبناء الصوتية، وأنساقه الصرفية، ووجوه إعجازه في مختلف المستويات اللغوية، وقد تنوعت مناهج المفسرين في تناول النص القرآني تبعاً لاختلاف مشاربهم العلمية، فكان منهم من غلب عليه الجانب الأثري، ومنهم من اتجه إلى البعد البلاغي، ومنهم من توسّع في الأحكام الفقهية، ومنهم من جمع بين هذه الاتجاهات في تفسير موسوعي جامع.

ويُعَدُّ الإمام أبو عبد الله القرطبي (ت 671هـ) من أبرز المفسرين الذين اتسم تفسيرهم بالشمول والعمق، إذ لم يقتصر في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» على بيان الأحكام الفقهية، بل أفرد مساحة واسعة للمعالجة اللغوية بمستوياتها المختلفة؛ من نحوٍ وصرفٍ وصوتٍ وبلاغة، فكان يقف عند الظواهر اللغوية وقفة تحليلٍ وتأمل، ويُعنى بتوجيه القراءات، وبيان الأصول الصرفية، وتعليل التحولات الصوتية. ومن بين الظواهر الصرفية ذات الامتداد الصوتي التي برز حضورها في تفسيره: ظاهرة الإعلال، وهي من أدق الظواهر في النظام الصرفي العربي، لما تنطوي عليه من تحولات صوتية تمسُّ بنية الكلمة ومقاطعها، وتقوم على مبادئ التخفيف والانسجام الصوتي، وقد عالجهما النحاة الأوائل في إطار القواعد الصرفية، بينما أعاد الدرس اللساني الحديث قراءتها في ضوء مفاهيم المماثلة الصوتية، والبنية العميقة والسطحية، والتنظيم المقطعي، والاقتصاد الجهدي في النطق.

وانطلاقاً من هذا التداخل بين الدرس التراثي والتحليل اللساني المعاصر، يهدف هذا البحث إلى إعادة قراءة معالجة القرطبي لظاهرة الإعلال قراءةً تحليليةً في ضوء التحليل الصوتي الحديث، بغية الكشف عن طبيعة تعليلاته، ومدى اقترابها من المفاهيم اللسانية المعاصرة، وبيان ما إذا كانت توجهاته تمثل معالجة وظيفية واعية للظاهرة الصوتية، أم إنها تقف عند حدود التوصيف الصرفي التقليدي.

وتتجلى أهمية هذه الدراسة في كونها تسهم في إبراز القيمة اللسانية الكامنة في كتب التفسير، وتؤكد أن التراث التفسيري لا يخلو من معالجة لغوية عميقة يمكن أن تُقرأ قراءة علمية حديثة تكشف عن أبعادها الصوتية والبنوية، كما تمثل محاولة لتقريب المسافة بين علوم العربية التراثية ومقولات اللسانيات الحديثة، في إطار منهج تكاملي لا يقوم على الإلغاء، بل على الحوار المعرفي.

وتنبثق إشكالية البحث من التساؤل الرئيس؛ إلى أي مدى يمكن تفسير توجيهات الإمام القرطبي لظاهرة الإعلال تفسيراً صوتياً حديثاً ينسجم مع مقولات اللسانيات المعاصرة؟

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي القائم على الاستقراء النصي لبعض مواضع الإعلال في تفسير القرطبي، ثم تحليلها في ضوء مفاهيم علم الأصوات الحديث، مع الموازنة بين التعليل التراثي والتفسير اللساني المعاصر؛ وصولاً إلى تقويم علمي موضوعي لهذه المعالجات.

أما هيكليّة البحث، فسيكون الحديث عن الإعلال في مبحثين: الأول: مفهوم الإعلال وأنواعه، والثاني: التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في ضوء التحليل الصوتي.

وقد أفاد البحث من العديد من الدراسات الصرفة السابقة التراثية وبعض المصادر الأصيلة؛ ككتاب سيبويه، والمقتضب للمبرد، وشرح الشافية للأسترباذي في تأصيل مفهوم الإعلال وأنواعه، كما أفاد من المعاجم اللغوية في رد الألفاظ إلى أصولها الاشتقاقية، ومن كتب علم الأصوات الحديثة لإعادة تفسير الظاهرة في ضوء المماثلة الصوتية والبنية المقطعية، غير أن الدراسة تجاوزت العرض الوصفي إلى التحليل البنوي التطبيقي، فجعلت من تعليلات القرطبي مادة لإعادة القراءة اللسانية، وكشفت عن تقاطعات منهجية بين الدرس التراثي والتحليل الصوتي المعاصر.

وتتناول هذه الدراسة مسألة من مسائل الصرف العربي وهي ظاهرة الإعلال عند القرطبي ومحاولة تحليلها من وجهة نظر صوتية.

والله نسأل أن يوفقنا للصواب، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الباحثين وطلاب العلم، فما كان فيه من توفيق فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ أو تقصير فمن النفس، والله الهادي إلى سواء السبيل.

2. مفهوم الإعلال وأنواعه

1.2. الإعلال لغة واصطلاحاً:

يُرَدُّ مصطلح الإعلال في أصله اللغوي إلى الجذر (ع ل ل)، وهو جذرٌ تدور معانيه - كما تفيد المعاجم العربية - حول معنى التغيّر والانتقال من حالٍ إلى حال، فالعلة في أصل الوضع اللغوي هي المرض، لما يعتري الجسد بسببه من تحوّل من القوّة إلى الضعف، كما يُستعمل الفعل «اعتلّ» و«أعلّه» للدلالة على إصابة الشيء بعلة تحدث فيه أثراً ظاهراً، وتوسع الدلالة لتشمل معنى السبب، فيقال: «هذا علّة هذا»،

أي سببه وموجبه⁽¹⁾، ومن اللافت أن نحاة العرب أطلقوا وصف «حروف العلة» على الألف والواو والياء، وعلّلوا تسميتها بذلك لئليها وقابليتها للتغير، حتى كأنها - في بنيتها الصوتية - أكثر الحروف تعرضاً للتحوّل والتبدّل.

ويُعزّز هذا المعنى الدلالي ما أورده صاحب تاج العروس، إذ يجعل العلة معنىً يحلّ بالمحلّ فيغيّر حاله⁽²⁾، وهو تعريف يركّز على فكرة الطرء والتأثير والتحوّل، ومن هنا يمكن القول إن الرابط الجامع بين المعاني اللغوية لمادة (علل) هو عنصر التغير الناشئ عن سبب؛ سواء أكان هذا التغير جسدياً كالمرض، أم ذهنيّاً كالانشغال، أم سببياً في علاقات الأشياء بعضها ببعض.

ومن خلال استقراء هذه المعاني يتبين أن القاسم المشترك بينها جميعاً هو معنى التغير المسبّب؛ فالعلة ليست مجرد وصفٍ عارض، بل هي عاملٌ يحدث تحوّلاً في البنية أو الحالة، وبذلك يمكن القول إن الدلالة اللغوية لمادة (علل) قد أرست الأساس المفهومي لمعناها الاصطلاحي في الدرس الصرفي؛ إذ إن الإعلال - في حقيقته - ليس إلا صورة مخصصة من صور التغير الذي يصيب حروفاً بعينها لعلة صوتية أو بنوية.

ومن هنا يتأكد أن الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ليست صلة اشتراك لفظي، بل هي امتداد دلالي يقوم على محور التحوّل والانتقال، وهو ما يمهد لفهم الإعلال بوصفه ظاهرة تغيّر صوتي محكومةً بسبب، لا إجراءً شكلياً معزولاً عن علله الصوتية.

وأما الإعلال في الاصطلاح فهو: "تغيير حرف العلة للتخفيف، ويجمعه القلب والحذف والإسكان، وحروفه الألف والواو والياء"⁽³⁾، "وسُمّيت حروف العلة لكثرة تغيّرها"⁽⁴⁾، فالإعلال "تغيير يطرأ على أحد حروف العلة (أ، و، ي)، وما يلحق بها (الهمزة)..." وهو جزء من الإبدال، فكل إعلال إبدال وليس العكس"⁽⁵⁾.

فالإعلال بمعناه الاصطلاحي يتعلق بالتغير الذي يحدث لعلة ما أو سبب، وهو تغيير مخصوص بين حروف محددة هي حروف العلة في العربية، التي ما سُمّيت باسمها هذا إلا بسبب تلك التغيرات التي تعتورها، والسبب في هذه التغيرات هو ضعف هذه الحروف ولينها ما يجعلها دائماً عرضة لتلك التغيرات. ويظهر من هذا أن ثمة علاقة وطيدة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، إذ كلاهما يدل على التغير، فجاء المعنى اللغوي مرتبطاً بتغير الحال أو الهيئة أو الظروف المحيطة بشيء ما وأكّد المعنى الاصطلاحي معنى التغير على وجه مخصوص يعترى حروف العلة في العربية.

(1) ابن منظور، 471/11، مادة: علل.

(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، 1965 م، 48-47/30، مادة: علل.

(3) ابن الحاجب، الكافية في علم النحو والشافعية في علمي التصريف والخط، ص 88.

(4) صاحب حماة، الكُنَّاش في فني النحو والصرف، 252/2.

(5) الأسمر، المعجم المُفصّل في علم الصرف، ص 144.

2.2. أنواع الإعلال:

ولما كانت هذه الدراسة تتناول الإعلال بوصفه ظاهرة صوتية صرفية، كان من الضروري الوقوف عند أنواع الإعلال التي تناولها النحاة بالتحليل والتصنيف، وذلك تمهيداً لدراستها في ضوء التحليل اللغوي والصوتي:

أولاً: الإعلال بالقلب: "وهو قلب علة إلى آخر، مثل قلب الواو في "قَوْلٌ وَمُيَقِّنٌ" ألفا والياء في مُيَقِّنٌ واوا لتصبح الأولى قال والثانية مُوقِّنٌ"⁽¹⁾، فهذا النوع من القلب يكون بقلب- أو إبدال- حرف علة إلى آخر، هذا التغير الذي يحدث بفعل القوانين اللغوية؛ طلباً للتخفيف في النطق، لتجنُّب صعوبة النطق لكلمة ما أو استحالة النطق بها.

ثانياً: الإعلال بالحذف: وهو الذي "يكون بحذف أحد أحرف العلة (ا، و، ي)، وما يلحق بها (الهمزة)"⁽²⁾، ومن ذلك حذف الواو من (قُلْتُ) والياء من (بِعت)⁽³⁾، فأصل الأولى (قولت) فحذت الواو للتخلص مما هو ممنوع في العربية وهو التقاء الساكنين على حد تعبير النحويين، وأصل الثانية (بيعت) فحذفت الياء للسبب ذاته.

ثالثاً: الإعلال بالنقل: "وهو نقل الحركة من حرف علة متحرك إلى حرف صحيح ساكن قبله، وهو خاص بالواو والياء"⁽⁴⁾، فهو نفسه الإعلال بالتسكين الذي "يكون بتسكين حرف العلة، كتسكين الواو من يقول والياء من يبيع"⁽⁵⁾، إذ إن الحركة كانت على الواو والياء (يَقُولُ) و(يَبِيعُ) فانتقلت إلى ما قبلهما وسكنت الواو والياء فتحولتا إلى (يَقُولُ) و(يَبِيعُ)، ذا يُسمَّى الإعلال بالنقل أو التسكين.

وعلى هذا، يتبين أن الإعلال في الدرس الصرفي العربي قد انحصر - في مجمله - في ثلاثة أنماط رئيسة هي: القلب، والحذف، والنقل، وهي أنماط لا تقوم على التغير الاعتباري، وإنما تحكمها ضوابط صوتية وصرفية دقيقة ترمي إلى تحقيق الخفة والانسجام في البنية الصوتية للكلمة العربية، ويُعدّ الوقوف على هذه الأنواع ضرورة منهجية لفهم آليات التحول الصوتي التي تطرأ على صيغ الألفاظ، وهو ما يمهد لتحليل ظاهرة الإعلال في تفسير القرطبي، والكشف عن مسوغاتها الصوتية في ضوء التحليل اللغوي الحديث.

3. التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في تفسير القرطبي في ميزان التحليل الصوتي

1.3. أنموذج من التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في سورة الفاتحة:

تتناول الدراسة في هذا المبحث بعض آراء القرطبي اللغوية التي تتعلق بظاهرة الإعلال، إذ إنها تعرض تحليل القرطبي لهذه الظاهرة من ثمّ التعقيب عليها بالتحليل الصوتي للوقوف على ماهية التغيرات التي حدثت، فمن التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في تفسير القرطبي ما ذكره في تفسير سورة الفاتحة:

(1) اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص 157.

(2) الأسمر، المعجم المفصل في علم الصرف، ص 146.

(3) ينظر: القوشجي، عنقود الزواهر في الصرف، ص 452.

(4) الأسمر، المعجم المفصل في علم الصرف، ص 147.

(5) اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص 157.

"المُسْتَقِيمُ صفةٌ لـ(الصراط)، وهو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام:153) وَأَصْلُهُ مُسْتَقْوِمٌ، نُقِلَتِ الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها"⁽¹⁾.

فيذكر القرطبي في تحليله لأصل كلمة (مستقيماً) أن أصلها (مُسْتَقْوِمًا)، فهو يتحدث عن تحول في أصل الصيغة، ويتحدث عن تغير وتبادل بين الأصوات، وقد كان تحليله لهذه الظاهرة تعليلاً صوتياً صرفاً، فهو يرى أن الصيغة الأصل كانت (مُسْتَقْوِمًا)، وافترض هذا الوزن يأتي على أن أصل الفعل (قام) هو (قَوِمَ)، فلما زيدت فيه حروف كان الأصل أن يأتي على (استقوم)، وعند صياغة اسم الفاعل منه سيكون على أصله (مُسْتَقْوِمٌ)، بضم أوله وكسر ما قبل آخره على ما يُعرف في تحويل الصيغ، فالكاتب الصوتية لكلمة (مُسْتَقْوِمًا) على النحو الآتي:

Mus/taq/wi/man

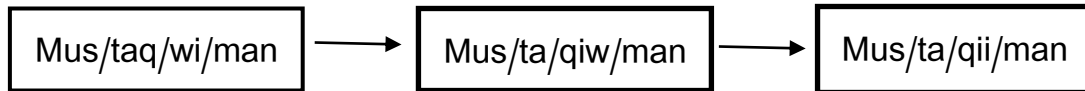
ثم نُقلت حركة الواو إلى ما قبلها وهو حرف القاف، وهي صيغة ذهنية مجردة لا وجود لها في النطق، وكتابة هذه الصيغة كما يأتي:

Mus/ta/qiw/man

ثم حدث إبدال بين الواو والياء، إذ أبدلت واو الكلمة ياء فكانت الصيغة النطقية الأخيرة، وهي صوتياً على النحو الآتي:

Mus/ta/qiim/an

والملاحظ هنا أن القرطبي يعزو هذا التغير الصيغي إلى أسباب صوتية، فهو يرى أن تبادل الحرفين (الواو والياء) حدث بفعل الكسر الذي يرى أنه كان على الواو ثم انتقل إلى ما قبلها مما جعل النطق صعباً إن لم يكن مُحالاً، مما أدّى بالنهاية إلى ظهور الصورة الأخيرة المنطوقة التي ظهرت فيها الواو بديلاً للياء. وإذا حُلِّلت الصورة الأولى التي افترضها القرطبي (مُسْتَقْوِمٌ) بناءً على التحليل الصوتي، مع الصورة الذهنية ما قبل الأخيرة وصولاً إلى الصورة النطقية الأخيرة سيكون التحليل الصوتي كما يأتي:

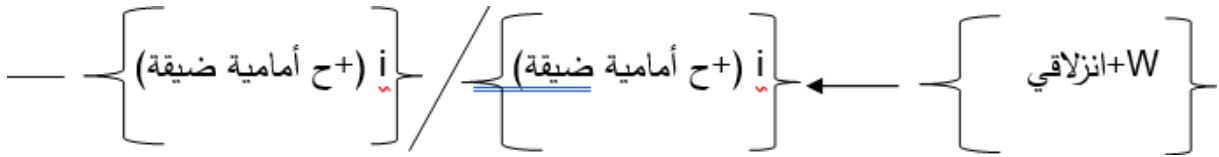


ويظهر في التحول إلى البنية النطقية الأخيرة أن الحرف الانزلاقي (w) تحول إلى حركة قصيرة (i)، وهذا التحول جاء من باب التماثل أو المماثلة، والتي هي: "تماثلٌ يحدث بين الأصوات المتجاورة، بحيث يفقد الصوت بعض خصائصه النطقية، أو يكتسب بعض خصائص صوت مجاور"⁽²⁾، فقد تماثل الصوت الانزلاقي (نصف الصامت) الواو مع الحركة القصيرة (i) من أجل التناسب الصوتي والاتساق، ذلك وفق المعادلة الصوتية⁽³⁾ الآتية:

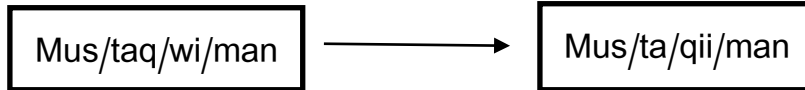
(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 148/1.

(2) استيتية، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، ص 93.

(3) فكرة المعادلات الصوتية مأخوذة من كتاب الأستاذ الدكتور سمير استيتية (اللسانيات الوظيفة والمجال والمنهج).



وتحليل هذه المعادلة أنَّ الصوت الانزلاقي يتحول إلى الصائت الحركة القصيرة الأمامية الضيقة عندما تكون الحركة سابقة للصوت الانزلاقي، وهي تحوُّل الهدفُ منه تماثل الأصوات من باب تخفيف النطق وتقليل حدة المقطع الصوتي (qiw) في مرحلة ما قبل البيئة السطحية أو النطقية. وإذا حلَّ الأصل المفترض بتجاوز التحول الثاني المفترض، الذي هو أصل الإعلال عند الأوائل، فإن الظاهرة ستُحلَّلُ بالاعتماد على التغير المباشر من البنية الذهنية الأولى التي هي الأصل، إلى البنية النطقية الأخيرة، كما يأتي:

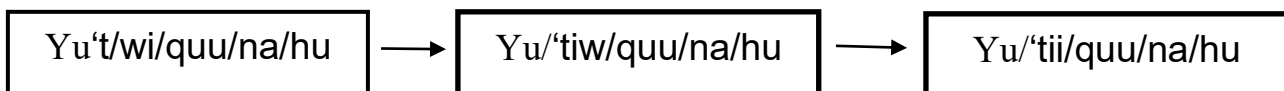


والذي حدث أنَّ الصوت الانزلاقي (w) قد تحوَّل إلى حركة قصيرة (i)، وبانضمام الحركة القصيرة المحوَّلة إلى أختها تكوَّنت حركة طويلة (ii)، فهي مماثلة من أجل تيسير النطق بالتخلص من مقطع ممنوع. وهذا التفسير الحديث لا يختلف كثيراً عما ذهب إليه القرطبي في تفسيره الصوتي لحدوث ظاهرة الإعلال، في حين استخدم القرطبي مصطلح التناسب الصوتي لتعليل هذه الظاهرة استعمل المحدثون مصطلح المماثلة، فاتفقوا جميعاً في التفسير الصوتي لهذه الظاهرة.

2.3. أنموذج من التحليل اللغوي لظاهرة الإعلال في سورة البقرة:

ومن تحليل القرطبي اللغوي لظاهرة الإعلال ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: 185) إذ يقول: "قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه خمس مسائل: الأولى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قرأ الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء، وأصله يُطُوقُونَهُ نُقِلَتْ الكسرة إلى الطاء وانقلبت الواو ياءً لأنكسار ما قبلها"⁽¹⁾.

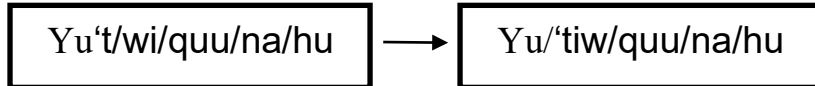
كما يرى القرطبي أنَّ الفعل (يُطِيقُونَهُ) أصله (يُطُوقُونَهُ)، فهو يرى أنَّ الكسرة التي كانت على الواو انتقلت إلى الطاء فصارت (يُطُوقُونَهُ)، ثم بسبب ثقل النطق لوجود كسر قبل الواو انقلبت الواو ياءً، ويمكن تمثيل ذلك بالكتابة الصوتية كما يأتي:



(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 286/2.

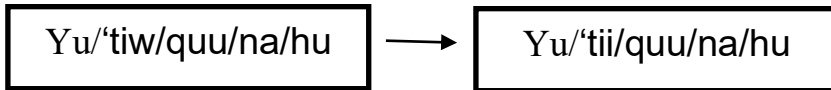
فالقرطبي يرى أن الصيغة الأصل كانت (يُطَوَّقُونَهُ)، ثم حدث إعلال بالنقل لتصبح الصيغة - من وجهة نظره- (يُطَوَّقُونَهُ)، ثم من أجل تناسب الحركة حدث إعلال بالقلب إذ قلبت الواو ياء، لانكسار ما قبلها، بحسب تعليل القرطبي، لتصبح (يُطَيِّقُونَهُ)، فالتناسب هو السبب في انقلاب الواو ياءً. وأما تفسير المحدثين لهذه الظاهرة فيقوم ابتداء على ما تُجَلِّيه لنا الكتابة الصوتية من تغيرات صوتية تحدث في البنى التحتية والسطحية، وفيما يأتي تمثيل صوتي للتغيرات التي حدثت:

المرحلة الأولى: من بنية تحتية إلى أخرى تحتية

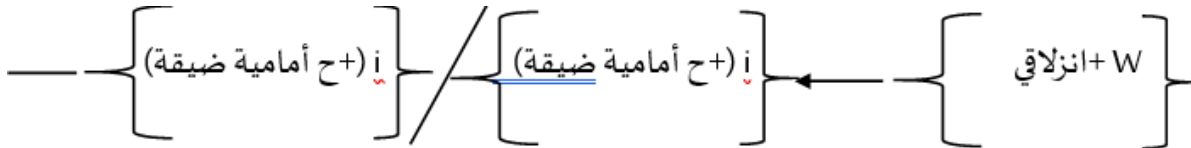


ويرى القرطبي أن البنية التحتية (يُطَوَّقُونَهُ) قد تحولت إلى أخرى تحتية (يُطَوَّقُونَهُ) بفعل نقل حركة ما بعد الطاء إليها، ويرى الباحثان أن تعليل هذه الظاهرة يقوم على تهيئ المقاطع لظهور البنية السطحية، فجاء نقل الحركة- وهو إعلال بالنقل- إلى ما قبلها نقلاً تهيئياً تسهيلاً للمرحلة التالية في التحولات المقطعية التي تحدث، فجاءت هذه التغيرات المقطعية من أجل السماح بإحلال مقاطع أخرى تتناسب صوتياً مع الأصوات الأخرى المكونة للكلمة.

المرحلة الثانية: من بنية تحتية إلى بنية سطحية



وفي هذه المرحلة تتحول البنية التحتية إلى بنية سطحية بالتماثل أو المماثلة، إذ يظهر في المقطع الثاني تحول الصوت الانزلاقي (w) إلى حركة قصيرة (i) مماثلة للحركة القصيرة التي سبقت الانزلاقي كما يأتي:



وما ذهب إليه القرطبي من التعليل بتناسب الحركات لا يختلف معه المعاصرون كثيراً، إذ إنه يرى أن أصوات العلة تبادلت من أجل مناسبة الحركة التي قبلها، والمعاصرون يقولون بالتماثل الصوتي أو الصائتي من أجل الإتيان بمقاطع تسمح بها اللغة والتخلص من مقاطع ثقيلة عسيرة. فقد تُخَلِّص من ثقل المقطع بنقل الحركة ثم بعد ذلك لجأ إلى تحويل الصوت الانزلاقي إلى الحركة القصيرة وهي الكسرة، فاستحال المقطع من الإغلاق إلى الانفتاح تيسيراً للنطق به.

ومن تحليل القرطبي لظاهرة الإعلال ما ذكره قائلاً: "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 19) ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ، أَيْ لَا يَفُوتُونَهُ، يُقَالُ: أَحَاطَ السُّلْطَانُ بِفُلَانٍ إِذَا أَخَذَهُ أَخْذًا حَاصِرًا مِنْ كُلِّ

جَهَةٍ... ومنه قول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ (الكهف: ٤٢)، وَأَصْلُهُ مُحِيطٌ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْيَاءِ إِلَى الْحَاءِ فَسُكِّنَتْ^(١).

القرطبي في هذا الموضع يذكر أصل النطق باللفظ وما استحال إليه دون تعليل فهو يرى أن السكون- الذي افترض وجوده على الياء- نُقِلَ إلى الحرف الذي قبله، وهو صوت الحاء، فذكر اللفظ وأصله دون ذكر لتعليل هذا النقل، فهو يرى أن الأصل مختلف عن النطق الذي تنطق به الكلمة. ويُمثّل ما ذكره القرطبي صوتياً كما يأتي:

MUḥ/YI/TUN → MU/ḥII/TUN

فالكتاب الصوتية قد بيّنت لنا الصورة الذهنية التي كانت قائمة في ذهن القرطبي عند مناقشة صياغة كلمة (مُحِيط) والأصل الذي كانت عليه.

فالقرطبي في هذا الموضع لم يفصّل في أصل الكلمة، كما لم يذكر السبب الذي هيئاً لظهور هذه الصورة الأخيرة، فأصل كلمة (أحاط) هو (أحوط)، إذ أصل الألف واوٌ، ففي المعاجم نجدها تحت جذر (حوط) على الأصل، قال في تاج العروس: " (حاطه) يَحُوطُه (حَوَطًا وَحِيطَةً وَحِياطَةً)، بكسرهما: حفظه وصانه."^(٢)، فالأصل أن كون بالواو أولاً على هذا النحو:

MUḥ/Wi/TUN

ثم حدثت مماثلة خلفية أو رجعية وهي التي تعني تجاور صوتين لغويين يتأثر بسببها الأول بالثاني^(٣) ليصبح مثله أو يأخذ شيئاً من صفاته، فقد تأثر الصوت الانزلاقي (W) بالحركة الخلفية (I) فاستحالت الكلمة كما يأتي بالكتابة الصوتية:

MUḥ/Yi/TUN

ويمكن أن يُمثّل بالمعادلة الآتية:

{ I + ح أمامية ضيقة } — / — { Y + انزلاقي } ← { W + انزلاقي }

وهذا يعني أن الصوت الانزلاقي (w) قد تأثر بحركة الكسرة التي تليه فتحوّل إلى الانزلاقي (Y)، ثم حدث تغير آخر في شكل المقاطع لتيسير النطق، فصارت الكلمة:

MU/ḥyi/TUN

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 221/1

(٢) الزبدي، تاج العروس، 220/19، مادة حوط.

(٣) أنيس، الأصوات اللغوية، ص 180

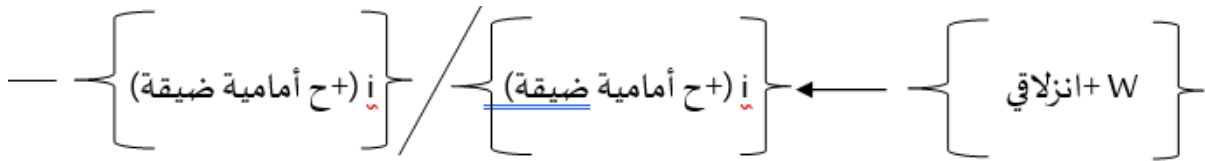
أما التحول الأخير فيظهر في تأثير الصوت الانزلاقي (Y) بالكسرة التي بعده (I)، لتظهر عندنا البنية السطحية كما يأتي:

MU/hii/TUN

وثمة تفسير صوتي آخر إذا أُتي بالكلمة على أصلها الواوي، وهو كما يأتي:

MU/hiw/TUN

وهذا على أصل اللفظ قبل أن يحدث الإسكان الذي تحدّث عن القرطبي، فعندها تُطبّق قاعدة التماثل الآتية على الكلمة مباشرة:



وتفسيرها أن الصوت الإنزلاقي (w) يستحيل إلى حركة أمامية ضيقة وهي الكسرة (i) عندما تُسبق بالحركة نفسها، أي حركة الكسرة.

بنتحول البنية ما قبل السطحية منطوقة سطحية كما يأتي:

MU/hiw/TUN

MU/hii/TUN

وبذلك يظهر للقارئ أن معالجة الإمام القرطبي لظاهرة الإعلال تتجاوز حدود الوصف الصرفي التقليدي إلى تعليل يقوم على مبدأ الانسجام الصوتي الداخلي للبنية اللغوية، فتعابير من قبيل: "نقلت الحركة" و"انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها" تمثل - في جوهرها - تفسيرًا قائمًا على التناسب الصوتي، وهو ما يتقاطع منهجيًا مع مفهوم المماثلة في الفونولوجيا الحديثة.

وقد كشف التحليل المقارن أن الفارق بين المقاربة التراثية والمقاربة اللسانية المعاصرة فارق في الأداة الاصطلاحية لا في جوهر الرؤية؛ إذ يشترك الطرفان في ردّ التحول الإعلالي إلى مقتضيات التخفيف وإعادة تنظيم البنية المقطعية، كما بيّن أن استحضار القرطبي للأصل الاشتقائي للكلمة يماثل - من حيث الوظيفة التحليلية - التمييز الحديث بين البنية العميقة والبنية السطحية.

وعليه، فإن قراءة ظاهرة الإعلال في تفسير القرطبي قراءة صوتية حديثة لا تُعد إسقاطًا نظريًا بقدر ما هي كشف عن امتداد معرفي داخل الدرس اللغوي العربي، يُبرز إمكان التكامل بين التحليل التراثي والفونولوجيا المعاصرة، ومن ثم فإن هذا المبحث يؤسس لمنهج مقارن يعيد توظيف أدوات التحليل الحديث في فهم النصوص التراثية، دون إغفال سياقها المعرفي وخصوصيتها العلمية.

4. الخاتمة

سعى هذا البحث إلى إعادة قراءة ظاهرة الإعلال في تفسير الإمام القرطبي قراءة تحليلية في ضوء التحليل الصوتي الحديث، انطلاقاً من الإشكالية الرئيسية التي تمثلت في التساؤل عن مدى إمكان تفسير توجهات القرطبي لظاهرة الإعلال تفسيراً صوتياً حديثاً ينسجم مع مقولات اللسانيات المعاصرة، وما إذا كانت معالجته تمثل وعياً وظيفياً بالبنية الصوتية أم تقف عند حدود التوصيف الصرفي التقليدي. وقد أفضت الدراسة - من خلال الاستقراء والتحليل والموازنة - إلى جملة من النتائج العلمية التي يمكن إجمالها في الآتي:

أولاً: تبين أن الإمام القرطبي لم يكن مجرد ناقلٍ للأقوال الصرفية، بل مارس تحليلاً لغوياً ذا بعدٍ صوتي واضح، إذ ربط الإعلال بمبدأ التناسب الحركي والتخفيف، وهو ما يعكس إدراكاً لطبيعة الانسجام الصوتي داخل البنية الصرفية.

ثانياً: كشفت الدراسة عن تقاطعٍ جوهري بين تعليل القرطبي لانقلاب الواو ياءً "لأنكسار ما قبلها" وبين مفهوم المماثلة الصوتية في اللسانيات الحديثة، مما يدل على أن الفارق بين المنهجين يكمن في الاصطلاح والأداة التحليلية أكثر مما يكمن في جوهر الفهم العلمي للظاهرة.

ثالثاً: أظهر التحليل الصوتي للنماذج التطبيقية أن الإعلال ظاهرة صوتية-مقطعية في أساسها، تحكمها قوانين إعادة تنظيم المقاطع والتخلص من البنى الثقيلة أو غير المنسجمة، وأن أثرها الصرفي نتيجة لبنيتها الصوتية، لا العكس.

رابعاً: ثبت أن القرطبي كان يستحضر الأصل الاشتقاقي للكلمة - فيما يشبه ما يُعرف حديثاً بالبنية العميقة - ثم يفسر التحول إلى الصورة المنطوقة، مما يدل على وعيه بالفارق بين الأصل النظري والبنية السطحية.

خامساً: أكدت الدراسة أن كتب التفسير، لا سيما التفاسير الموسوعية، تمثل ميداناً خصباً للدراسات اللسانية التطبيقية، وأن إعادة قراءتها قراءة تحليلية تكشف عن ثراءٍ علمي لم يُستثمر بعد بالقدر الكافي.

وعلى ضوء هذه النتائج يمكن القول إن إشكالية البحث قد وجدت جوابها في أن معالجة القرطبي لظاهرة الإعلال لا تقف عند حدود الوصف الصرفي، بل تنطوي على تعليل صوتي وظيفي ينسجم - في مضمونه - مع المبادئ التي تقوم عليها الفونولوجيا الحديثة، وإن اختلفت المصطلحات والأدوات المنهجية. وانطلاقاً من ذلك، يوصي البحث بجملة من التوصيات، من أبرزها: توسيع نطاق الدراسات الصوتية في كتب التفسير لتشمل ظواهر أخرى كالإبدال والإدغام والإمالة؛ وإعادة قراءة أبواب الصرف في التراث العربي في ضوء التحليل الصوتي البنيوي؛ وتعزيز الدراسات البينية بين علوم القرآن واللسانيات الحديثة؛ والعمل على إنشاء مدونات علمية تُعنى بحصر الظواهر اللغوية في التفاسير وتحليلها تحليلاً منهجياً

مقارناً؛ إضافة إلى الإفادة من التقنيات الصوتية الحاسوبية في دراسة التحولات الفونولوجية في النصوص التراثية.

وفي الختام يؤكد البحث أن التراث اللغوي العربي - في سياقه التفسيري - لم يكن معزولاً عن الوعي الصوتي البنوي، بل قدّم تصورات تفسيرية يمكن إعادة بنائها في ضوء النظريات الحديثة دون قطيعة معرفية. ومن ثمّ فإن الحوار بين التراث واللسانيات المعاصرة ليس ترفاً علمياً، بل ضرورة منهجية لإعادة اكتشاف عمق الدرس اللغوي العربي وإبراز إسهامه في فهم البنية الصوتية للغة. والله وليّ التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

5. قائمة المراجع

- استيتية، سمير شريف، (2004)، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث؛ عمان، الأردن: جدارا للكتاب العالمي.
- الأسمر، راجي، (1997)، المعجم المفصل في علم الصرف (مراجعة: إميل بديع يعقوب)، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- أنيس، إبراهيم، (1975)، الأصوات اللغوية، القاهرة، مصر: مكتبة الإنجلو المصرية.
- ابن الحاجب، جمال الدين عثمان بن عمر، (2010)، الكافية في علم النحو والشافية في علمي التصريف والخط (تحقيق: صالح عبد العظيم الشاعر)، القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، (1965)، تاج العروس من جواهر القاموس (تحقيق: مجموعة من المحققين)، الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، مطبعة حكومة الكويت.
- صاحب حماة، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الأفضل، (2000)، الكتّاش في فني النحو والصرف (تحقيق: رياض بن حسن الخوّام)، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (2003)، الجامع لأحكام القرآن (اعتنى به وصححه: هشام سمير البخاري)، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار عالم الكتب.
- القوشجي، علاء الدين علي بن محمد، (2001)، عنقود الزواهر في الصرف (دراسة وتحقيق: أحمد عفيفي)، القاهرة، مصر: مطبعة دار الكتب المصرية.

- اللبدي، محمد سمير نجيب، (1985)، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (1414). لسان العرب، بيروت، لبنان: دار صادر.

6. Bibliography List

- Al-Asmar, R, (1997), Al-Mu 'jam al-Mufasssal fi 'Ilm al-Sarf (Reviewed by E, B, Ya 'qub), Beirut, Lebanon: Dar al-Kutub al-'Ilmiyya.
- Al-Labadi, M, S, N, (1985), Mu'jam al-Mustalahat al-Nahwiyya wa al-Sarfiyya, Beirut, Lebanon: Dar al-Risala.
- Al-Qurtubi, A, 'A, M, ibn A, (2003), Al-Jami'li Ahkam al-Qur'an (Reviewed and verified by H, S, al-Bukhari), Riyadh, Saudi Arabia: Dar 'Alam al-Kutub.
- Al-Qushji, 'A, al-D, 'A, ibn M, (2001), 'Unqud al-Zawahir fi al-Sarf (Edited by A, Afifi), Cairo, Egypt: Dar al-Kutub al-Misriyya.
- Al-Zabidi, S, M, al-H, (1965), Taj al- 'Arus min Jawahir al-Qamus (Edited by a group of editors), Kuwait: Ministry of Guidance and Information, Government Press.
- Anis, I. (1975). Phonetics. Cairo, Egypt: Anglo-Egyptian Library.
- Estaytiyeh, S, S, (2004), Linguistics: Field, Function, and Method, Irbid, Jordan: 'Alam al-Kutub al-Hadith; Amman, Jordan: Jadara for Global Publishing.
- Ibn al-Hajib, J, al-D, 'U, ibn 'U, (2010), Al-Kafiya fi 'Ilm al-Nahw wa al-Shafiya fi 'Ilmi al-Tasrif wa al-Khat (Edited by S, A, al-Sha 'ir), Cairo, Egypt: Maktabat al-Adab.

- Ibn Manzur, A, al-F, J, M, ibn Makram, (1414), Lisan al-Arab, Beirut, Lebanon: Dar Sader.
- Sahib Hama, I, A, F, I, ibn al-Afdal, (2000), Al-Kunnash fi Fani al-Nahw wa al-Sarf (Edited by R, ibn H, al-Khawam), Beirut, Lebanon, Modern Library for Printing and Publishing.